زاد الاهتمام بالنثر منذ انبثاق نور الاسلام وقيام الدولة الجديدة في زمن النبي محمد صلى الله عليه واله وسلم، وأخذ ينمو ويتطور ويزداد اتساعا في عهد الخلفاء الراشدين، ثم في دولة بني أمية، ولا سيما بعد الفتوحات الكبيرة وتوسع رقعة الحكم الإسلامي شرقا وغربا، وزيادة مصالح مركز الخلافة، وحاجة الخلفاء الى الإتصال بالولاة والعمال .

وبدأ كثير من الكتاب بتجويد الكتابة واتقانها واظهارها بأسلوب جزل متين وقد كانت في أول أمرها تميل الى الايجاز الشديد واختصار المعاني باقل العبارات واقصرها، والتمسك بالأمانة والصدق والصراحة التي درج عليها العرب واوصى بها الدين الحنيف .

وحينما تقدم العهد بالدولة الأموية ومضى الجيل الأول، مالت الكتابة الى التنويع والاطناب والتوسع في المعاني والتأنق في صياغة الجمل والعبارات، حتى أصبح لها أصول محددة وقواعد مقننة، وقد ظهرت ثمرتها جلية واضحة عند عبد الحميد بن يحيى (ت 132 هـ) كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في دمشق وقد أجمع النقاد والمؤرخون على انه واضع اسس الكتابة الفنية الأول في النثر العربي، قال ابن النديم " عنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل " وقال المسعودي " صاحب الرسائل والبلاغات، وهو أول من أطال الرسائل، واستعمل التحميدات في فصول الكتب، فاستعمل الناس ذلك بعده " .

كان عبد الحميد يعنى في كتاباته بتنسيق العبارات وتوازنها، وأخذ الجمل بعضها برقاب بعض، والتبسيط والإطناب، واستخدام السجع والازدواج من غير تكلف، وقد تجلت طريقته في رسالته الدقيقة المحكمة التي وجهها الى الكتاب ليتخذوها دليلا لهم في عملهم الكتابي.

ولما قامت الدولة العباسية عظُم شأن الكتابة وزاد الاقبال عليها بعد ان انفتح امامها مجالات واسعة، واصبح للكتاب مقام محمود لدى الخلفاء والوزراء والولاة وكان للموهوبين منهم دور بارز في تسيير شؤون الدولة السياسية والادارية والمالية .

كان الكتاب في العصر العباسي مثقفين ثقافة عالية ومزودين بصنوف المعرفة تراهم يحفظون القران الكريم وشيئا كبيرا من الحديث النبوي وكلام البلغاء وخطب الصحابة والخلفاء ووصاياهم وقصائد كبار الشعراء فضلا عن تزويدهم بثروة لغوية ووقوفهم على علوم الامم الأخرى مباشرة أو بعد ترجمتها الى اللغة العربية

لقد توسعت الآفاق أمام الكتابة بعد ان احتضنت الدولة العباسية الأمة الإسلامية وتولت رعايتهم وحمايتهم والنظر في شؤونهم السياسية والثقافية والعمرانية فنجد هناك كتابات في التفاويض والتقاليد والمبايعات والعهود والعقود والتهاني والتعازي الى جانب التواقيع والخطب والرسائل والمنشورات والوصايا وهناك ايضا كتابات اخوانية كالشفاعة والعتاب والشكوى والاعتذار واستنجاز الحاجات وكتابات في اغراض تأديبية باسلوب القصص ظاو السير على السنة الحيوان .

وقد سلك الكتاب آنذاك اسلوبين في كتاباتهم :

الأول : الاسلوب السهل المرسل العذب مع القصد في الالفاظ بقدر ما يطلبه المعنى من الوضوح والجلاء، ورائد هذا الاسلوب ابن المقفع ، يقول وهو يوصي أحد الكتاب : " اياك والتتبع لحواشي الكلام طمعا في نيل البلاغة، فان ذلك هو العيّ الاكبر " وسار على هذا الدرب كثيرون منهم : عمرو بن مسعدة، وسهل بن هرون، واحمد بن يوسف ...

الثاني : اسلوب التأنق واستيفاء المعنى باستقصاء اجزائه، وتقطيع الكلام الى فقر مرسلة ومسجعة، والاستطراد الى الاخبار والنوادر والتراجم والاكثار من الشواهد الشعرية ومأثور الكلام كما نرى ذلك في أسلوب الجاحظ .